المشرق

خلود النفس

لـلاب لويس شرفواليو اليسوعيّ

لم يخلق الله في بدء الخليقة الانسان الاوّل على صورته وشبهه ليتلف هـذا العمل المحكم الذي سُرَّ بـه كأجمل واكمل مصنوعات يده الالهيَّة وانَّما كان عزَّ وجلّ يريد بقاء ذاك المركّب العجيب فيصرف في جنَّة عدن ردحاً من الدهر في العزّ والهناء ريثما ينقلهُ الى دار الخلد والبقاء.

تلك كانت غاية الخالق في تكوينه لآدم ونسلهِ من بعـده . وكلٌ يعرف كيف بلبـل الانسان الاوّل ذلك النظام الالهيّ وطمع في منصب كان يفوق طوره فتعدّى امر صانعه وصار غرضاً لسهام الموت يقضي في الارض أيّاماً قليلة ثمّ لا يلبث ان يودّع الحياة او قُلْ بالحري ان حياتهُ هذه ليست غير موتٍ متواتر ينتهي بموت نهائيّ فتكون الولادة نفسها كما يقول العرب هي رسول الموت او كما قال ابو العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلّكم يصير الى تَبابِ
لمن نبني ونحنُ الى تراب نصيرُ كما خُلقنا من ترابِ
ألا يا موتُ لم أرَ منك بُدّاً أتيت فلا تجورُ ولا تحابي
كأنَّك قد هجمتَ على مشيبي كما هجمَ المشيبُ على شبابي

هذا صوت الطبيعة يرنُّ صداهُ في قلب كلّ مخلوق وجـبَ الانسـان أن يُلقي بنظرهِ حولهُ فيتحقَّق صحّة هـذا القول فيرى باختباره اليوميّ انَّ كلّ حيّ يموت وانَّ حياة المرء على الارض على قول الكتاب « كالظلّ والخبر الزائل او كالسفينة الجارية على الماء المتموّج التي بعد مرورها لا تجد اثرها او كطائر يطير في الجوّ فلا يبقى دليل على مسيرهِ . يضرب الريح الخفيفة بقوادمهِ ويشقُّ الهواء بشدَّة سرعتهِ ورفرفة جناحيهِ يعبرُ

ثم لا تجد لمروره من علامة او كسهم يُرمى الى الهدف فيُخرَق به الهواء ولوقته يعود الى حاله حتى لا يُعرف ممرُّ السهم كذلك نحن ولدنا ثم اضمحلنا » (سفر الحكمة ٥ : ١٠—١٣)

*

نعم لا مناص من الموت فان تلك حقيقة لا تحتاج الى برهان لوضوحها . ومع هذا يشعر الانسان في قلبه انهُ خُلق للحياة . لا يستطيع مهما شاء ان ينفي عنهُ ذلك الصوت الذي سمعهُ في الفردوس من فم الحيَّة الخادعة للأبوين الاوَّلين « لن تموتا » . فان ذلك الصوت يوافق ما كتبتهُ الطبيعة على صفحات ضميره بانهُ لن يموت وانَّ ذلك الانحلال الجاري على جسده ليس بكافٍ ليستهُ كلهُ وانَّ قسماً منهُ وهو الاسمى والاجلّ سوف يقوى على الموت فيبقى حيًّا

وهذه الحقيقة قد نالت قوَّةً جديدة منذ حلّ كلمة الله على الارض فشفى اسقام البشريَّة وابرأ عاهاتها وحمل على عاتقه اوصابها واوجاعها ووطَّد آمالها بقوله : « انا الحقّ والحياة . من يؤمن بي اعطيتهُ الحياة الابديَّة »

كلَّا لست اموت كلّي . فانَّ لنفسي حياةً لم يمسّها شيء من اجوال العالم وتقلُّباته . للموت ان يفتك بما حولها بل لهُ ان ينقض اركان جسمي يوماً بعد يوم امَّا نفسي فتزدري بحملاته . اين أيام حداثتي الاولى وألعابي وتبسّمات أمي وكلُّ ما كان يبهج صباي ؟ . اين شبابي ونشاطي في العمل ؟ اين كهوليتي وطلبي لشريف الامور وانصبابي على الاشغال وقيامي بالمناصب العالية ؟ . مات صباي . مات شبابي . ماتت كهوليَّتي . فلم يبقَ لي من كلّ ذلك سوى الجسم الذي احسُّ اليوم بانحطاط قواهُ . لكنَّ بين هذه الخرابات كلّها اشعر بشيء لم يمت فيَّ . اشعر بالنفس التي كانت تحيي حداثتي فانَّها ليس فقط لم تمتْ بل اضافت الى قواها قوًى جديدة ربحتُها بالشغل والارتياض . اشعر بالنفس التي كانت تبهج شبابي فهي هي اليوم قائمة فوق انقاض الشباب مزدانة بمعارف وعلوم وفضائل لم تعهدها قبلًا . اشعر بالنفس التي كانت تسمو بي في كهوليَّتي الى المناصب وجليل المآثر . فهي هي اليوم تطلب ما هو ابقى واشرف وتحلق بجناح آمالها الى ما وراء هذا الافق الضيّق الذي يحيط بها . واذا قربت من شفاهي كؤوس الموت وحسستُ بسكرات

المنون فاني مع حشرجة صدري وفي شدّة نزاعي اسمع نغمة الرجاء والحياة التي تشنف آذاني لآخر مرّة: لن تموت بل حياةً تحيا

*

ومن أغرب الامور انّ تلك النغمة المنعشة وذلك غناء الظفر يتصاعد من انحاء المعمور وتردّده اصوات كلّ الشعوب على مختلف اديانها وتباين نزعاتها وجلّتُه تُسمع اشدّ وأجهر عند فراش المنون وعلى حافة القبور . واحسنُ ما قيل مؤخرا في رثاء شيخ كريم قول شاعر مُفلق تثبت ابياتهُ هذه الحقيقة:

دفنوا حجابَ النفس في جوف الثرى ... والنفس حلّت بالمحلّ الارفع
يا ذا اليقين غدًا اراك فانني ... اهلُ الشكوك على سوى المترعزع
قالوا الممات من الحياة وما دَروْا ... انّ الحياةَ من الممات المُفجع
ما ذا تخيّلُ شاعرٍ بل حكمةٌ ... تركتْ على روح الحكيم الأروع
فالحبُّ ينبتُ بعد ما يبلى أما ... للحيّ بعد ذهابهِ من مرجع
ما ميتةُ الانسان الّا رقدةٌ ... فنباهةُ المرقى انتباهُ المُجمع
انّ الخلود حقيقةٌ ازليّةٌ ... نَفْيُ النُّفاةِ لها هباءةُ زعزع
لم ينفها العلمُ الحديثُ وأثبتت ... في مجمع العلم القديم المجمع

فنعم القول تسمعهُ لو شئتَ حيثما تحلُّ جثّة ميتٍ في رمسها . وهذه الكنيسة المسيحيّة تحمل موتاها الى « مراقدهم » كما تدعو المقابر وتلقي في وسط القبور اصوات الرجاء الوطيد وتتلو صلوات القيامة والحياة وتوقد اسرجة النور لنفي الظلمة وتجعل على ضريح ابنائها علامة الفوز والظفر وتصدُّ المؤمنين عن البكاء المفرط كمن ليس لهم رجاء.

وليست كنيسة المسيح منفردةً في اعتقادها بخلود النفس فلو استفتيت البشريّة في اربع خوافق العالم لاتّفقت اصواتها بهذا المعتقد لا يشذُّ منها الّا اصوات بعض المشرقين الذين يكذّبون شهادة ضميرهم ويودُّون لو صحّ الامر ليتملّصوا من تبعة آثامهم

فناشدتك الله لو كان كلّ شيء فينا يموت ما بال الامم تتفنن في رموزها التي تُشير كلها الى البقاء والخلود؟ ما معنى اكرامها للموتى؟ لِمَ تلك القبور الجميلة وتلك المشاهد الانيقة المقامة عند جثثهم؟ لِمَ تلك الكتابات المزخرفة التي تعظّم ذكرهم وتشيد بمآثرهم؟ لِمَ تلك الآنية الذهبيّة التي كانوا يتّخذونها ليودعوها رمادهم عند حرق اجسامهم؟ لِمَ

تلك الذبائح والقرابين التي كانوا يقدّمونها لتخميد ارواحهم لئلّا تعود الى الارض فتؤذي سكّانها ؟ لمَ تلك الدراهم التي كان الرومان واليونان يجعلونها في افواه الموتى ليدفعوا بها حقّ عبورهم الى جنّات الخلد ؟ أليست كلّ هذه العادات بيّنات لامّة تنبئ باعتقاد القدماء لحقيقة خلود النفس ؟ اكان يمكنهم ان يقيموا الهيا كل لقياصرتهم او حكّامهم إن كانوا لم يسلّموا ببقاء نفوسهم بعد اضمحلال اجسادهم ؟

ولم يكتفوا بهذه الرموز مع وضوحها بل ربّما اعلنوا صريحًا بايمانهم بخلود النفوس وبرجائهم في وجود حياة أخرى تعيش فيها تلك الارواح . ولو اردنا جمع هذه الشواهد المتعدّدة لدى كلّ الامم لاتّسع بنا المجال فنثبت منها امثلة قليلة

واوّل ما يحضرنا من ذلك اعتقاد قدماء المصريين التي تنطق كلّ آثارهم من مدافن واهرام ونواويس واكفان عن بقاء النفس وخلودها (اطلب المشرق ١٠ : ١٤٢) حتى ان هيرودوت المؤرخ اليوناني (ك ٢ ف ٢٣) أنهم سبقوا الكلّ في هذه العقيدة (١

وممّا يؤيد اعتقادهم بحياة أخرى عنايتهم بتحنيط الموتى لزعمهم بان النفس تحبّ مجاورة جسدها وترتاح الى مساكنته ما دام محفوظًا في صورته . وللمصريين كتاب يُدعى كتاب الموتى وكلهُ حافل باوصاف دار البقاء واحوال النفوس فيها . وكذلك كتابان آخران سبق للمشرق وصفهما يُعرفان بكتاب الابواب وكتاب ما يوجد في الطوات اي الجنّة . فترى نصوص هذه الكتب مرقومة على آثار الموتى ومدافنهم مؤيّدة بعقيدة الخلود في ارض النيل قبل المسيح بنيّف واربعة آلاف سنة . ومن تصاويرهم الشائعة صورة الاله اوزيريس يدين النفس بعد انفصالها من الجسد

ولم يكن اعتقاد البابليين مخالفًا لاعتقاد اهل مصر في خلود النفس يشهد على ذلك كتاب جليل وُجد في مخطوطات بابل المسمارية يحتوي وصفًا موسّعًا لنزول الالهة « اشتار » الى الجحيم ووصف حالة النفوس التي فيه

وكذلك قدماء الفرس فان كتابهم الديني « زند اوستا » لزرادشت مشترعهم يصف مقرّ الابرار بقوله : « انّ الموت يفتح الطريق للسماء مقام الابرار حيث النور والسعادة .

---

١) ودونك قولهُ الاصلي :

Πρῶτοι δὲ καὶ τόνδε τὸν λόγον Αἰγύπτιοι εἰσὶ οἱ εἰπόντες ὡς ἀνθρώπου ψυχὴ ἀθάνατός ἐστι .

ليس هناك ظلمة البتّة ولا ريح ولا قرّ ولا حرّ ولا فساد ولا موت ولا شيطان مسيء ولا عدوّ قاهر » . اما الاشرار فينفيهم عن هذا المقرّ الذي يملك فيه الاله هرمز « لانّ نفسهم تهبط الى الجحيم مكان الابالسة ومملكة اله الشرّ اريمان »

ومثلهم اهل الهند فانّ ديودورس الصقلي روى عنهم انهم كانوا يجلّون البراهمة لأنهم كانوا يتبرونهم من نسل الآلهة لا يفوتهم شيء مما يجري في الآخرة

واشهر من ذلك اكرام الصينيين لاجدادهم الموتى يضحّون لهم الضحايا ويقرّبون القرابين لاعتقادهم بخلود نفوسهم . ولو زرت مقابرهم وجدت فوقها كتابات تنطق بهذا المعتقد ومما قرأتاهُ آخرًا في رحلة بعض السيّاح انّ احد اعيان الصين توفي في پاكين فنعاهُ اقاربهُ الى قناصل الفرنج بهذه الرسالة « ننعي الى سعادتكم فلانًا الذي رحل رحلتهُ الكبيرة وركب مَتن التنّين ليصير ضيف السماوات »

هذا بعض من عدّ وقطرة من بحر ولو لستقرينا تعاليم كلّ الشعوب والقبائل لوجدنا مثل هذا الاعتقاد راسخًا في قلوب اهلها يروونهُ على طرائق شتّى وظروف متباينة تتّفق في جوهر الامر . لكنّنا لا نستطيع ان نضرب الصفح عن الشعب الاسرائيليّ حامل الوحي ورافع منار التعاليم الالهيّة بين الامم فانّ بني اسرائيل نشروا لواء هذه الحقيقة كما فعلوا ببقيّة الحقائق الدينيّة التي ورثوها من آبائهم . اسمع ألعازر الكاهن الشيخ كيف يجيب مَن حرّضهُ على تجاوز سُنن آبائهِ لينجو من العذاب (٢ مك ٦ : ٢٦) : « اني ولو نجوتُ الان من نكال البشر لا افرُّ من يدي القدير لا في الحياة ولا بعد الممات » . بل اسمع فتيةً صغارًا تلقّنوا ذلك منذ نعومة اظفارهم نريد الاخوة المكابيين السبعة الذين صبروا على الشدائد والآلام المرّة رجاء الفوز بافراح الآخرة . وهذا قول اصغرهم (٢ مك ٧ : ٣٠) : انّي لا أُطيع امر الملك وانّما أُطيع امر الشريعة . . . ولقد صبر اخوتُنا على ألم ساعة ثمّ فازوا بحياة ابديّة وهم في عهد الله » . وكلّ يعرف ما صنع يهوذا المكابي (٢ مك ١٢ : ٤—٤٦) لمّا ارسل الى اورشليم الف درهم ليقدّم بها ذبيحةً عن اخوتهِ اليهود القتلى « لاعتباره انّ الذين رقدوا بالتقوى قد أُدخر لهم ثوابٌ جميل وهو رأي مقدّس تقويّ ولهذا قدّم الكفّارة عن الموتى ليُحَلُّوا من الخطيئة »

وليس عمل المكابيين خاصًا بهم فان رقيت سُلّم الاجيال متتبّعًا آثار شعب الله

الى زمن الانبياء الى الملوك الى القُضاة الى موسى الى ابراهيم والآباء الاوّلين وجدّتهم جميعاً على عقيدة واحدة بأنّ النفس مخلّدة لا تموت مع الجسد بل تُصيب بعد انفصالها عن الجسد ثواباً او عقاباً كما استحقّته باعمالها. ليت شعري ايوجد كلام اصرح من قول سفر الجامعة الذي ادّعى البعض بأن صاحبهُ لم يعتقد بالخلود (٣:٢٧) : « قلتُ في قلبي انّ الصدّيق والمنافق كليهما يدينهما الله. هنا لكلّ غرض وقتٌ لكن هناك على كلّ عمل حساباً » وقد ختم كتابهُ بقولهِ (١٢:١٣—١٤) : « اتّقِ الله واحفظ وصاياه فانّ هذا هو الانسان كلّهُ لأنّ الله سيُحضر كلّ عمل ليدين على كلّ خفيّ خيرًا كان او شرًّا »

ومثل هذا كثير في سفر المزامير يُعلن بهِ داود النبيّ من اوّل مزاميرهِ حيث بيّن ما ينتظر في يوم الدين الصدّيقين والمنافقين من الثواب والعقاب

وقد شهد من قبلهِ أيوب بهذه الحقيقة بل بقيامة الاجساد ايضاً حيث قال (١٩: ٢٥—٢٧) : « انّي لعالم بأنّ فاديَّ حيٌّ وسيقوم آخرًا على التراب وبعد ذلك تُلبَّس هذه الاعضاء بجلدي ومن جسدي أعاين الله الذي انا اعاينهُ بنفسي وعيناي تريانهِ لا غيري »

وان قيل ما بالُ موسى لم يذكر في كتبهِ خلود النفس افليس سكوتهُ دليلًا على انّ تلك الحقيقة كانت مجهولةً عند العبرانيين. فالجواب على ذلك أنّ موسى لم يُرد بكتابة اسفارهِ ان يعلمنا ما كان يعتقدهُ بنو اسرائيل او ما لم يعتقدوهُ . وانّما كانت غايتهُ ان يدوّن تأريخ التكوين ثم يلخّص اخبار بني اسرائيل منذ اختار الله اجدادهم الى يوم خلّصهم من رقّ عبوديّة مصر ليدخلهم في ارض الميعاد ثمّ يلقّنهم اوامر الله ووصاياهُ وسُنَنهُ. وقد اتّسع موسى في قضيّة التوحيد لعلمهِ بميل بني اسرائيل الى عبادة الاوثان امتثالًا بالشعوب المجاورة لهم. امّا حقيقة خلود النفس فلم يجد موسى داعياً لبيانها اذ لم يكن احدٌ من بني اسرائيل ينكرها ولم تدعُهم اولئك الامم الى نكرانها وكلها متّفقة في اثباتها كما سبق

وزد على ذلك انّ في اسفار موسى اشارات عديدة الى اعتقاد بني اسرائيل بعقيدة بقاء النفوس. فقل لي رعاك الله ما معنى العبارة التي تكرّرت في اسفار موسى عن موت الآباء حيث يقال : « انضمّوا الى آبائهم » و « عادوا الى قومهم » و « رقدوا مع آبائهم » وان « حياتهم الحاضرة غربةٌ » وما شاكل ذلك من العبارات اليس معناها انّ بعد هذه

الحياة الفانية حياة باقية . وان قيل ارادوا بذلك ان تُقبر اجسادهم بقرب اجساد آبائهم اجبنا انَّ هـذا لا يصحّ في عدّة آيات . مثالهُ قول يعقوب (تك ٣٧ : ٣٥) لمّا اخبرهُ بنوهُ عن موت يوسف فظنّ انَّ وحشًا ضاريًا افترسهُ فقال: « انّي انزل الى ابني ناحًا الى الجحيم » فقولهُ هذا لا يصدق عن القبر وهو يظنّ ان الوحوش افترست جسد ابنهِ فلا يبقى الّا نفس ولدهِ التي كان يعلم انها لم تمت فاراد ان يجتمع بها في العالم الآخر

وقد اتّخذ السيد المسيح في انجيلهِ الطاهر (متّى ٢٢ : ٣١—٣٢) آية أخرى من اسفار موسى (خر ٣ : ٦) ليقرّر الصدّوقيين بوجود غير هذه الحياة الزائلة قال عزّ من قائل : افما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : « انا إله ابراهيم واله اسحاق واله يعقوب » والله ليس اله اموات وانّما هو اله احياء.

وكذلك قول الله لابراهيم (تك ١٥ : ١) انهُ « سيكون هو اجرهُ العظيم جدًّا » لا يصحُّ ان لم يُقَل بحياة أخرى لأنَّ سعادة ابراهيم في هذه الحياة لم تكن بكاملة وقد ابلاهُ الله ببلايا عديدة كالحرب والمجاعة كما ذكر الكتاب

هذه بعض دلائل تنفي الشكّ عن اعتقاد الشعب الاسرائيليّ منذ اوّل نشأتهِ بحياة الآخرة. ولا ننكر انَّ الله في العهد العتيق اتّسع خصوصًا في وصف الخيرات الماديّة والشرور الحاضرة لمن يحفظ وصاياه او يخالف اوامرهُ لانَّ بني اسرائيل مع اعتقادهم بخيرات الآخرة وشرورها كانوا ينقادون اكثر الى المنافع الحسوسة والاضرار القريبة . وقد صرف السيّد المسيح انظار تلاميذهِ عن كلّ ذلك ليوجّهها الى الباقيات وكل آية من آيات الانجيل الشريف شاهد لامع على هذه الحقيقة التي اتّضحت بعد المسيح بأجلى بيان فعمّت كلّ اقطار المسكونة

وخلاصة القول انَّ عقيدة خلود النفس عريقة في قلب الانسان استمدَّها من اصفى الموارد وأعذبها ترتقي في سلّم الاجيال بلا انقطاع الى اوّل نشأة الامم وما كان كذلك ليس هو اختراعًا بشريًا بل حقيقة راهنة مقرّرة استعارها ابن آدم من الوحي الاوّل وشهد لهُ بصدقها سداد عقلهِ . وذلك وفقًا للمثل القائل : انَّ صوت الشعوب هو صوتُ الله

(لهُ بقيّة)